فصل

حوادث سنة تسع

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ودخلت سنة تسع ، بعث المصدقين يأخذون الصدقات من الأعراب .

وفيها : بعث علياً رضي الله عنه إلى صنم طَيّ ليهدمه . فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر . فهدموه . وملأوا أيديهم من السبي والنّعَم والشاء . وفي السبي سُفانة أخت عدي بن حاتم ، وهرب عدي إلى الشام . ووجدوا في خزانته ثلاثة أسياف ، وثلاثة أدرع . وقسم علي الغنائم في الطريق ، ولم يقسم السبي من آل حاتم حتى قدم بهم المدينة .

قال عدي : ما كان رجل من العرب أشد كراهة لرسول الله ﷺ مني ، حين سمعت به . وكنت رجلا شريفاً نصرانياً . وكنت أسير في قومي بالمِرْباع . وكنت في نفسي على دين . فقلت لغلام لي راع لإبلي : اعدد لي من إبلي أجمالاً ذُلُلاً سماناً . فإذا سمعت بجيش محمد قد وَطِيءَ هذه البلاد فآذني . فأتاني ذات غداة ، فقال : ما كنتَ صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنع الآن . فإني قد رأيت رايات ، فسألت عنها؟ فقالوا : هذه جيوش محمد . قلت : قَرِّب لي أجمالي . فاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام ، وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضرة . فلما قدمت الشام أقمتُ بها ، وتخالفني خيل رسول الله ﷺ ، فتصيب ابنة حاتم ، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيء .

وقد بلغ رسولَ الله ﷺ هربي إلى الشام . فمرَّ بها . فقالت : يا رسول

الله ، غاب الوافد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة ، فَمُنَّ عليَّ . مَنَّ الله عليك . فقال : «مَن وافدك؟ . قالت : عدي بن حاتم ، قال : «الذي فرَّ من الله ورسوله؟» -وكررت عليه القول ثلاثة أيام- قالت : فَمَنَّ عليَّ ، وسألته الحُمْلان ، فأمر لها به وكساها وحملها وأعطاها نفقة .

فأتتني . فقالت : لقد فعل فِعْلة ما كان أبوك يفعلها . ائْتِه راغباً أو راهباً ، فقد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه . قال : فأتيته ، وهو جالس في المسجد . فقال القوم : هذا عدي بن حاتم -وجئت بغير أمان ولا كتاب- فأخذ بيدي -وكان قبل ذلك قال : «إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي»- فقام إليَّ ، فلقيته امرأة ومعها صبي . فقالا : إن لنا إليك حاجة . فقام معهما حتى قضى حاجتهما . ثم أخذ بيدي حتى أتى داره . فألقت له الوليدة وسادة . فجلس عليها ، وجلست بين يديه . فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : «ما يُفرُّك؟ أيُفرك(*) : أن يقال : «لا إله إلا الله؟» فهل تعلم من إله سوى الله؟» فقلت : لا فتكلم ساعة . ثم قال : «أيُفرّك أن يقال : الله أكبر؟ وهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟» قلت : لا ، قال : «فإن اليهود مغضوب عليهم . والنصارى ضالون» ، فقلت : فإني حنيف مسلم . فرأيت وجهه ينبسط فرحاً .

ثم أمر بي فأُنزلت عند رجل من الأنصار . وجعلت آتيه طَرَفي النهار . فبينا أنا عنده ، إذ جاءه قوم في ثياب من صوف من هذه النّمار ، فصلى ثم قام . فحث بالصدقة عليهم ، وقال : «أيها الناس ، ارضَخوا من الفضل ولو بصاع ، ولو بنصف صاع ، ولو بقُبْضَة ، ولو ببعض قُبْضة ، يَقِي أحدُكم

(*) أي ما يحملك على الفرار والهرب من التوحيد!

وجهه حر جهنم -أو النار- ولو بتمرة، ولو بشِقِّ تمرة. فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة. فإن أحدكم لاقٍ اللهَ، فقائل له ما أقول لكم: ألم أجعلْ لك مالا وولداً؟ فيقول: بلى، فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فلينظر قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله. فلا يجد شيئاً يقي به وجهه حر جهنم، لِيَقِ أحدُكم وجهه النار، ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة. فإني لا أخاف عليكم الفاقة. فإن الله ناصركم ومعطيكم، حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة، ما تخاف على مطيتها السُّرَّق».

فجعلت أقول: فأين لصوص طيء؟(*).

قصة كعب بن زهير:

قال ابن إسحاق: لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف كتب بُجير بن زهير إلى أخيه كعب: يخبره أن رسول الله ﷺ قد قَتَل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن مَن بقي من شعراء قريش -ابن الزِّبَعْرى، وهُبيرة بن أبي وهب- قد هربوا في كل وجه. فإن كان لك في نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ. فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانْجُ إلى نجائبك. وكان قد قال:-

ألا بلغا عني بُجيرا رسالة

فهل لك فيما قلت؛ ويحك. هل لكا؟

فبيِّن لنا، إن كنت لست بفاعل

على أي شيء غير ذلك دلكا؟

(*) قال السهيلي: وحديث إسلام عدي بن حاتم صحيح عجيب. أخرجه الترمذي وأخته: اسمها سفانة.

على خلق لم تُلْفِ أماً ولا أباً

عليه . ولم تلق عليه أخاً لكا

فإن أنت لم تفعل . فلست بآسف

ولا قائل ، إما عثرتَ : لعالكا(*)

سقاك بها المأمون كأساً رَوِيَّة

وأَنْهَلَك المأمون منها وعَلّكا

فلما أتت بُجيراً كره أن يكتمها رسولَ الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «سقاك بها المأمون ، صدق والله . وإنه لكذوب ، أنا المأمون» ولما سمع «على خلق لم تلف أماً ولا أباً عليه» قال : «أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه» .

ثم قال بجير بن زهير :-

مَن مُبْلغ كعبا ، فهل لك في التي

تلوم عليها باطلا ، وهي أحزم؟

إلى الله -لا العزى ولا اللات- وحده

فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجو ، وليس بمفلت

من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير -وهو لا شيء- دينه

ودين أبي سُلْمَى عليَّ محرم

(*) كلمة يدعى بها لإقالة العاثر من عثرته .

فلما بلغ كعباً ضاقت عليه الأرض . وأشفق على نفسه ، فلما لم يجد من شيء بُدّاً ، قال قصيدته التي مدح فيها رسول الله ﷺ ، ثم خرج حتى قدم المدينة . فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة . فغدا به إلى رسول الله ﷺ . فذكر لي أنه قام فجلس إليه -وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه- فقال : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ، إن أنا جئتك به؟ قال نعم» : قال : أنا كعب بن زهير .

فحدثني عاصم بن عمرو : أنه وثب عليه رجل من الأنصار . فقال : يا رسول الله ، دعني وعدو الله أضرب عنقه . فقال : «دَعْه عنك ، فقد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه» فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير . فقال قصيدته التي أولها :ـ

بانت سعاد ، فقلبي اليوم متبول   مُتَيّم إثرها لم يُفْدَ مكبول

ومنها :

أمست سعاد بأرض لا يُبَلِّغها   إلا العِتاق النجيبات المراسيل

إلى أن قال :

تسعى الغُواة جنابيها ، وقولهمو :

إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

وقال كل صديق كنت آمله   لا ألهينك إني عنك مشغول

فقلت : خلوا سبيلي . لا أبا لكمو

فكل ما قَدّر الرحمن مفعول

نُبِّئْتُ أن رسول الله أوعدني   والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا ، هداك الذي أعطاك نافلة الـ

ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة . ولم

أذنب ، وإن كثرت فيَّ الأقاويل

إلى أن قال :

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة -لما أسلموا- زولوا

زالوا . فما زال إنكاس ولا كشف

عند اللقاء ، ولا مِيْل معازيل

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم

ضرب إذا عَرَّد السود التنابيل

شُمُّ العرانين ، أبطال لبوسهمو

من نسج داود في الهيجا سرابيل

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمو

قوماً ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا في نحورهمو

وما لهم عن حياض الموت تهليل

قال عاصم بن عمرو : فلما قال : إذا عرَّد السود التنابيل ، وإنما عنانا معشر الأنصار ، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار :-

من سرَّه كرم الحياة فلايزل		في مِقْنَبٍ من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر		إن الخيار همو بني الأخيار
الذائدين الناس عن أديانهم		بالمشرفي وبالقنا الخطار
والبائعين نفوسهم لنبيهم		يوم الهياج وفتنة الكفار
والناظرين بأعين محمرة		كالجمر غير كليلة الإبصار
والباذلين نفوسهم لنبيهم		للموت يوم تعانق وكرار
يتطهرون ، يرونه نُسُكاً لهم		بدماء من علقوا من الكفار
قوم إذا خوت النجوم فإنهم		للطارقين النازلين مقارى

* * *